

باتجاه ليلنا الأصيلي

كريم عبد السلام

باتجاه ليلنا الأصيلي

1997

"أنت يا تراكول ، يا بيتول، انظر إلينا ، اسمعنا،
لا تتحل عنا ولا تخذلنا، امنحنا نسلنا وذريتنا،
ما دامت الشمس تسير ومادام هناك ضياء،
أعطنا دروبا طيبة كثيرة ،دروبا سوية، ولتنل الشعوب الأمن ،
ولتكن شعوبا سعيدة"

من الكتاب المقدس لقبائل الكيتشى مايا

من أيام البطالة

خلفَ النمل الذي يوسّع مستعمرته .

بالسكاكين ، اكتشفنا مزيداً من الشقوق

تزيل طبقةً من الأرض ، فتبدو لك المستعمرةُ كاملة

الشغالات تدور حول نفسها

تحمى الملكة التي تجر بطنها الكاريكاتورية

وتزحف في دائرة .

دائماً ، نلجأ للنمل فى أوقات فراغنا
نستدل عليه من من حبيبات التراب التى يلفظها ،
النوع الأسود ، يلفظ التراب أسرع من غيره
فى حبيبات غليظة

حين أخرجنا الملكة ، عقدنا خيطاً حول بطنها
أسميناه المقود
تدافعت خلفها الجموع ، وكان علينا أن نُثبت
لها ، أن الملكة لا تساوى شيئاً

دروس التشريح ، الكحول ، الدبابيس
تذكرناها ، إلا أننا اكتفينا بتقسيم كل نملة
لاثنتين ، تتحركان أبطأ من الواحدة .

الفتاة على السطح

ظُلُّها يصعد معنا السلا لم

خائفاً مرتبكاً

يصعد على أطراف أصابعه

لا يحرسها ، بل يتجسس ليخبر أقاربها

تنقل على الحوائط وتابع صعودها ،

تابع ابتسامتها التي رسمتها على أول سلمة ،

واحتفظتُ بها حتى باب السطح الخشبي .

حملناها نحن الأربعة فأكلته الحسرة

ظُلُّها .

تشريناه في صدورنا ومنعناها عنه

كأنما اتفقنا على فعل ذلك معاً

مددنا أكفنا ورفعناها

فأسلمت الفتاة كل واحد منا جزءه الخاص

فيما ظلالنا تتخذ أحجاماً مختلفة

وتتبادل أماكنها على السلام.

سقط حذاؤها وانحنيت ألتقطه

فمرق ظلُّها بسرعة

لكنه لم يحصل إلا على ساقها ،

رسمها على الجدار رأس بجمعة

أحد الجيران فتح الباب ثم صفقه

يعتقدون أن خطراً يتحين الفرصة لمفاجأتهم

يحدّق واحدٌ من العين السحرية

وعندما تتجاوز الأقدام طابقه ،

يظن أن دوره تأجل لمرةٍ قادمة .

نعلم اللحظة التي نطلق فيها مساء الخير ،

من وراء ظهورنا بينما نواصل الصعود بالفتاة

رأسها يرتاح على ساعدي

ويتلقى اهتزازات صعودنا

أردت أن أقبل جفنها

وخشيت ظن رفاقي أنني أعطلهم

أو أنها المرة الأولى

التي أحمل فيها عينين مغمضتين لفتاة

وأصعد

حبأُ الغسيل

تترجج أجسادهن كلما انحنين لإخراج الملابس من الأوعية
ولا يرين غرابة في ذلك .

أتكلم عن الأثداء ، فيضحكن ويلكزنني في صدري

كلامى يجعلهن فخورات

مطرٌ أسقطه بنفسى ، يجعل شعورهن

تلتصق بجباههن فيرفعنها بالأصابع

فيما ترتجف شفاههن ارتجافاً هيناً .

أحبيبتُ أن تنشر على حبالى ملابسُ كلها بيضاء
أرشف الشاي في الصباح ، وأتحسس الملابس الرطبة
لا تمطري

أتمنى لو يظن المارة أن الملابس تخصنى
كلها بيضاء ، مما يجعلنى أبتسم

أتاخر في العمل ، أو أترك نفسى لقدمى
تذهبان لشوارع جديدة متعللاً بأننى أتنزّه
بينما أطمع في إطالة عمري
وتفوتنى المشاجرات بين جاراتى
حول شرفتى وحبال الغسيل.

.....

ملكٌ على شرفة

ملك على حبال الغسيل

بعدها ينشرون الغسيل في شرفتي يجلسن على سريري

أكفهن متوردةً ،

الماء يحول الأصابع

يظنها حبات الفول التي تركناها لتتبت على سور الشرفة

الماء ينخدع كل مرة يغسلن فيها ،

يتزكن له أصابعهن ، حتى يظنّ أنهن تركنها للأبد

وإذ يخرج من سكونه

يسحبنها وقد فرغن من الغسيل

.....

الشمس غداً قوية ،

عندما ألاطف إحدى جاراتي

الصوص يحومون حول الشرفة ،

عندما أضايق أخرى

اطوين الغسيل جيداً ، على مهل

قبل وضعه فى السلال

عندى مكواة لقمصان أزواجكن

عندى منضدة ، وتهيأت لسماع الشجارات الأخيرة

يطوين الغسيل ويمضين

يحملن السلال على رؤوسهن ويصعدن السلم

أو يهبطنها

يقفن كلاماً عن مرات قادمة ويتسمن !

النورُ الحار

هرب حبيبُ فاطمة

فاطمة تحت شرفتي ، مضيئةً ومتبوعة بالصراخ ،

بنافورات من أكواب الماء وحفنات التراب .

يهرب أحباءٌ بمتعة سرقوها فينسون أجمل التفاصيل

وحين يودون نسيانها بعد هجومها

تظل عالقةً بأطراف أصابعهم

منيرةٌ بصمتها وسط اللهب

الذي يضيء ، كيف تكزّ على أسنانها وترتعش

ترتعشين وسط الحرارة

كل الألم لا يدفعك للاعتراف بقوته ؟

تكزّ على أسنانها بدل أن تصرخ

مندهشةً من قوتها

من اندفاعها

هي الخائفة دائماً

.....

في الشرفة ، ثم على السلام حاملا بطانيتي السوداء

مصطدما أولاً برائحة شعرها المشتعل

بهايته الأكثر صدقا من هالات القديسين

بطانيتي السوداء تطير في الهواء

تتعلق لحظة ، ثم تصطدم بالجسم المضىء

فتحكّمها الجارات حوله ،

جسمها الذي أحبه حببها وترك داخله كرةً تتحرك

نوراً حاراً يطفو ويأكلها دون مقاومة منها .

قدما فاطمة حافيتان يغطيهما التراب

عندما حملوها رأيتهما جيداً

قدما طفلة أوغلت في اللعب

تحملها أمها بمساعدة الجيران ، لتحممها .

أنصتُ إلى البطل .. إلى حركة يديه

اسمُه : سليم عبد الشافي ، ويعمل حداداً

ستة أيام في الأسبوع ، يطوّع المعدن

وفي يوم الجمعة يستيقظ مع الأذان

يجب النساء البديئات ، ولا يخاف إلا خالقه

كلُّ حصاده : ولدان وبنت

يسألهم ، ممن تخافون ؟

فيجيبونه : لا أحد إلا الله .

.....

يا "ثليم"

يناديه ابنه الأصغر ،

فيضحك من لغة الطفولة المثقوبة

ويهتز بطنه الكبير .

في أمسيات الصيف

تحكى الأمهات عن ذئب

سُمع عواؤه في الحى

واحتفى مصطحبا أقوى الإناث من الكلاب

بعد شهر ، عادت الأنثى هزيلةً منهوشة

وراءها جرو واحد

صار فيما بعد الذئبة الصفراء

التي تخيف حينا

تحتفى ثم تظهر وحوها خمسة جراء أو ستة

صفراء وسوداء ومرقطة

من ألوان الجراء ، نخمن ماذا كان لون الذكر ،

شريكها .

حين تغيب ، يلهو العيال حتى آخر الليل
تحت أعمدة الكهرباء ، وحول أكوام القمامة

المشتعلة

تذهب الأمهات إلى السوق ويرجعون دون

شكوى

بعودتها ، يحتل جرائها الشارع

وهي تحرسهم

الآباء يدورون من حارات جانبية

حتى يصلوا إلى أعمالهم

في أمسيات الصيف

تحكى الأمهات عن شاب

أيقظ الحى ذات فجر

بعد أن عاد برأس الذئبة ورؤوس جرائها.

.....

سليم عبد الشافى لا يحتمى بمطواته الأسبانية

ماركة النجمات الثلاث ،

لم تصل لخصم من الخلف ، ولم يهرب بها

عاشقين

تسللا لفناء منزله

يجلوها بالزيت ويحملها مع التميمة التى خاطتها

أمه بملابسه

سليم عبد الشافى لا يفاخر بحكاياته مع الكلبة الذئبة ،

هو لم يفعل شيئا غير أن خاض معركة :

نُحشتُ ذراعه

وقطع هو رأسها بمطواته

أصدقاؤه الذين يدفعونه للكلام

يشرعون في سرد الحكاية متعمدين الخطأ

عندئذ ، تتحرك أصابعه

أصابعه ضرورية للكلام ،

توفق بين الهواء والكلمات

فتساعدنا على ملاحقة كائنات تتخلق وتختفى .

.....

صوّبْتُ

كان الحجر في يدي مسنوناً ونبأخها يقترب

حتى لو قبضتُ على ذراعك - قلتُ لنفسى

عُدُّ برأسها

بكفيها وأسنانها

بعينها

بنباحها وزمجرتها

عُد بالرعب الذى تبشه فى الأطفال ، فلا يخرجون

للعب

ثم ألقه دفعة واحدة على كومة القمامة المشتعلة

العبوا يا أصحابي حتى آخر الليل

يا أمهاتنا ، اخرجن إلى السوق وقتما تشأن

دون أن تنفرط الأشياء بين أيديكم من الرعب

يا أعمامي ، اذهبوا إلى العمل غير متوجسين

فقد جئت بالأنياب والعينين والنباح

وسألقي بها إلى النار .

.....

قدمتُ لها ذراعى ، هائجةً وعنيدة

أعطيتها ذراعى اليسرى

ضربتى على خطمها ، تبعثها ثانيةً وثالثةً

بعدها أرخت فكيها وتهاوت

إذا أفلت الخطم ، فكل ضربةً تزيد من قوتها

من هياجها واستعدادها للنهش .

عندما هوت ، كانت الجراء متحلقةً حولنا

والدم يغطى ذراعى المتهدلة

قدمى على فكيها ومطواتى فى حلقها

الجراء تشممت أمها ونبحت نباحاً رفيعاً

رأيت الجراء كبيرةً تثير الفزع فى شارعنا

فأعملت مطواتى

كان العيال محبوسين فى البيوت

والأمهات يدارين خوفهن

والآباء يفكرون كيف يحمون خطوات الصغار

فأعملتُ مطواتي .

.....

سليم عبد الشافي يعمل حداداً

ستة أيام في الأسبوع، يطوّع المعدن

وفي يوم الجمعة، يستيقظ مع الأذان

ضخم الجسم إلا أنه ينسى دائماً

ويتحرك كريشة .

ضحوك إلا عندما يتكلم عم الخوف

أو يحكى قصة الذئبة

يداه فى حجره

أو على ركبتيه

عندما يصمت.

الموت

في أول السرداق ، يجلس إخوة القتييل
يتأملون أسلحتهم ، عند مرور من يكرهونه
ويسبون أمهات الضباط .

مساعدهم يتفرون في الوجوه
بجنا عن علاماتٍ لا تدلّ على الحزن .

السرداق يحيطنا من ثلاث جهات

نقوشه لا تترك لنا ثغرة

التلاوة رديئة ، لكننا نهز رؤوسنا .

فى مفاه من الزخارف

الأحمر هو المساطر

التواءات الأبض والأسود تحاول الالتفاف حوله.

قرباً منى مسنون احتسوا القهوة مرتين

دون خوف من اتهامهم بالشماتة

رفعوها إلى شفاههم بأف مرتعشة

ثم غاصوا فى حياة قادمة

عيونهم رمادية ،

تتضح كلما حدقوا فىمن يجاورونهم .

لو أتى الموتُ الآن سيقبضون عليه من ياقته،

إخوة القتل

لو أتى ، ظاناً أنهم ، منهارين لمقتل أخيهم

برصاصات الضابط ،

سيقبضون على عنقه ، مخرجين إياه على الحصى

وأمام الجموع المحتشدة ،

يسكبون ماء النار على وجهه

يقطعون أصابعه ، إصبعاً إصبعاً

ثم يشقون عضلاته ويحشونها بالملح

ولوصمه نهائياً - الموت

يطعنون مؤخرته .

تأتى الشرطة فى نهاية الشوط

لكنها لن تجد سوى القليل المهيب

الشبابيك مسكرة ، ولا نساء على العتبات

الرجال ذهبوا إلى مدن تذكرها فجأة

يسكنها أقرباء لهم

الأطفال ، استبدلوا الأسطح بالشوارع

وأعدوا تلالاً من الحجارة والزجاجات الفارغة .

الفَرَح

البناتُ كنسن الرقاق

رسمن دائرةً حمراء بنشارة الخشب المصبوغة

وبداخلها قلبٌ أخضر

رسمن حدوداً للسرادق

ثم نشرن الألوان في كل بقعة .

.....

أتى النجارون فتقافز الأطفال

وأنشأوا معهم أول مسرح في حياتهم

العمال يقيمون المسرح والأطفال يتقافزون.

أن تبني مسرحاً

يعنى أن تثبت الدعائم بالعوارض

بجبال من الليف ، تُطلى بالحر للتمويه.

صناديق تحوى زجاجات البيرة

خضراء ، يحملها شبان إلى بيت العريس

أحدهم خبأ زجاجةً تحت ملابسه

وانسحب وراء شئ نسيه

آخرُ يرقص ، إصبغه مطوأةً في الهواء

يا أخوات العروس

اجذبنها إلى الداخل حتى يطلع المساء

لاتدعن فضولها يتجسس على ما يُعدّها خارجاً

جرّدنها ، ثم دغدغن طيورها

قلن لها : هكذا سيفعل وأفضل منا

أزلن العتبات ورطين طياتها وزواياها

هذا لأنفه وفمه ، وهذا لسلاحه

لا تأخذنَ عليها انتشاءها بين أيديكن

لا تأخذنَ عليها رجفتها ، صرخةً فرحها الزائد،

أسناتها في أذرعكن حين تنسين حنو اللمسة

لا تأخذنَ عليها دفأها أو تأهبها

وزودنها بالنصائح .

.....

الصبي يطوح المبخرة

لا تعوقه قدمه المباركة عن كسب عيشة

تأكد أن الهلال لفرح وليس لمأتم

فأتى يتأرجح بوعاء النار وكيس البخور

من سيردّه فى يوم كهذا

يهنىء ، ىربء على الأءءاف والأذرع

وئءلقى الهباء

لا ىنبغى عدُّها الآن أو النظر فىها

ىءسها بءببه وىنفء فى وعاء النار

شرفاء البىران امءلأء والشبابىك

الرجال للسراءق والنسوة للءطّلع؁

للمراقبة واستءلاء الحءمة

الءى ءطفو من بلساء الكلام

والشرفة مءزن الزغارىء والصرءاء

ءىن ىءهامس العروساء

أو ءىن ءشرق أول مطواة بىء الشاب السءران

الذى أءطأ الهواء وأصاب وءهه؁

مستمراً في الرقص والنزف

في الدوران والارتعاش

في الابتسام والتوازن

.....

كلُّ شاب بالسرادق ، اختارته بنتٌ في شرفةٍ ليبدأ

رحلة الصيد

كلُّ شاب يعلم أن البنت تريد برهاناً ، فيشرع

المطواة ويرقص

متطلعاً للشرفات في حيرة

أين رائحة فريستي وسط الروائح ؟

.....

لو يمر الفرح بسلام ،

لا يترصد فتى لغريمه الذي صالحه

بينما قلبه غير صاف

يريد أن يؤذيه ، فلا يجد أفضل من الفرع مكاناً

يأتى وأصحابه وينالون ثأرهم

لكنهم يحطمون ما يصادفهم

من بوسعه منع التموجات

حين تلقى حجراً في الماء ؟

لو ينسون ثاراتهم هذه الليلة ،

من أجلهم ، توزع شبانُ العائلة

أماماً وفي الخلف

يبتسمون لضيوفهم مطمئنين للأسلحة

تحت ملابسهم

وعند أول بادرة للعراك

يعود الماء ساكناً بلا تموجات .

من يلتفت للرسوم الملونة على الأرض

الدائرة الحمراء والقلب الأخضر ؟
رتبوا المقاعد ، فانغزرت قوائمها فى الرسم
بعثرت الأقدام ما صنعتها الأيدى ،
الأقدام التى تتحرك مع آهات المغنى
فتصعد بالتراب الساكن تحت النشارة المصبوغة.

فى الصباح
تكنس البنات الزقاق ويحلمن
يمضى الشباب إلى أعمالهم
حاملين الليلة الماضية

بائعُ زهورٍ مرَّ من شارعنا

نادى على بضاعته أمام أبوابنا المغلقة ،

فذهب النداء إلى الفاكهة والروبابيكيا .

بإشارةٍ من يده

خاطب البنات على عتبات أبوابنا المفتوحة

يده التي تحمل الزهور ارتفعت ،

فابتسمت البنات خجلاً من المرايا الإلهية.

على الضوء المنبعث من زهوره

أدركتُ بنتٌ أن قدميها متسختان

ورأت أخرى مزقاً في جلبابها فتوارت

القطط عيونها خضراء مشوبةً بالصفرة

والكلاب تمز ذيولها وتتسكع وراء الأطفال.

بائع الزهور ينادى

جيشٌ من الأطفال الحفاة

تركوا ألعابهم وانطلقوا خلف العبير

رددوا نداءه

تسللوا ، ثم عادوا بالنقود من مخابئ أمهاتهم

لا نعرف ما نفعل أمام زهرة

أنزل نتشممها متأملين انحناءات كل ورقة

أم نقبض عليها بقوة منكسين كأسها ؟

ربما فرح أحدنا بزهره وجدها

على صندوق قمامة ، على الحافة

بانتظار لفحة هواء أو أصابع طفل

لكنها سرعان ما تصبح ثقيلة ومضحكة في يده

لدرجة أن تسقط تلقائياً تحت قدم مسرعة

أو على بقعة ماء جوار رصيف .

عجوز حلت مندليها واشترت وردة حمراء،

وضعتها في كوب على حافة الشباك

الأحلام،

أيمكن صيئها بضربة واحدة

شابٌ اشترى عقداً من الفلّ لحبيته

فارتدته حول عنقها

العقد سيدبل بعد يوم ، لكنها ستعلقه على مسمار

في الصالة ، وكما وقع نظرها عليه

لمست الهواء الذي يحيطه ،

مرّ من شارعنا ، بائعُ الزهور

لم تنبحه الكلاب

الأطفال الذين ينهشون الغرباء

ذهبوا مع العبير !

صياذ الكلاب الضالة .. وأغنيته

في الثالثة بعد الظهر

توقفت عربة البلدية في شارعنا

عربة البلدية لونها رمادى وبها زنانة

الزنانةُ بابها مغطى بالسلك

البابُ لا يحول بين آذاننا والهواء

الأمهات في الشرفات

والأطفال يتشبثون بجلايبهن.

.....

في الثالثة بعد الظهر ، كان الحصى ساخناً

والموظفون قد عادوا من العمل إلى نومة القيلولة

والعيالُ الذين هجروا الشوارع

يتناولون غداءهم

وكانت الإناث قد تركت رائحتها في الزوايا :

رسائلَ عاجلةً إلى ذكور السباق :

سوداء وصفراء

مرقطة وبلقاء

ضخمة وخانعة

شرسة وخانعة

هرمة وفتية

صحيحة وعرجاء

تنكس رؤوسها وتسعى خلف تعرجات الرائحة

في الثالثة بعد الظهر

ينزل صيادُ الكلاب من العربة

مساعدوه ، حاملو الأنشطة

يبدون غير مكترثين

صياد الكلاب ، يرتدى بالطو أزرق

ويكرهه الناس

يضع بإصبعه خاتماً نحاسياً

ويعلم أن الناس يكرهونه

يحمل بندقية بيد ويطبق الأخرى على الهواء

ويكز على أسنانه

.....

في الثالثة بعد الظهر

يخطو الصياد على الحصى الساخن ويعنى :

أنا آلة تتقدم في دوائر

أنا قدر

المرصود يعدو أمامي ويدخل شبكتي ،

التي تضيق تدريجياً

يعدو لأثبت ارتبائه ورعبه

يعنى :

تمكنت من رقبتة ، عروقها تنبض تحت إصبعي

روحه تلهث وسط عظامه المحطمة ،

داخل جلد لم يعد يمسكه ببعضه غير سيور

وبحيرات دقيقة

جذبت أنشوطتي للخلف بقوة

وسددت ضربات للفكين .

يعنى :

رائحة يوم يبحث عن مسارب

رائحة حياة تتحول

رائحة سخونة ولعاب

رائحة خفة تغرى بالطيران .

.....

في الثالثة بعد الظهر

ينفصل ظلُّ الصياد ليغنى :

أنا ملاك بيدين متفحمتين

وخطوات مشوهة

خطواتي بعيدة عن الناس

وأبصق أنى شئت

لتكن الكراهية من نصيبي

لأكن طائرَ شؤم

أنا الذراع القوية لكابوس

ما العمل فيَّ

إنني السوط أيضا .

كلامُ البقالِ الذي فكّر في حياته

استيقظتُ فلم أجد عينيَّ

وجدتُ حجّرين ، فغطيتُ حدقتيّ

الليلُ يتقدم من كل ناحية

النباحُ كل الأصوات .

استيقظَ العالمُ فلم يجد عينيه

ولم يجد قلبه

لكنه لم يغط حدقتيه

واستبدل حجراً بقلبه الضائع .

النهار لا رائحة له ،

أعرفه من العربات الهادرة تحت شباكي

ومن خطوات التلاميذ

أتكلم ، لا كمن يبكي

بل كمن يقف أمام شجرة ويناديها :

يا شجرتي

جاراتي يرين الدجاج في الشارع

وأنا أرشوها بالذرة لتؤسنى

كلما سهوتُ ، خفت القوقاُ فألقى بحفنة جديدة

وأبتسم عندما تصيح الديكة معلنةً عن الطعام

دائماً حفيفُ أجنحتها

تصعد الديكةُ إلى حجرٍ أو إفريزٍ ثم تهبط

كأنها تستطيع التحليق ،

والدجاجات تلقط الذرة وتقوى بنعمات متباينة،

بأجاء الذرة

أو هربا من الأقدام ،

أو تحت الديكة

جاراتى يجمعن الدجاج ويمازحنى

فأعرف أنه الغروب

أنا ديكٌ عجوز ،

يتخيلنى وقد استيقظتُ فى الصباح مغطىً بالريش

ساعتها سيدبحن الديوك الأخرى

ويجنبنى معارك لا أطيعها

أنصتُ لمخالب القطط على الصفيح

لقطرات الميزاب

أنصتُ للفحيح الغامض الذى يتزايد فى الليل

خلف دكاني ، ولأيدى الصغار الذين يخطفون

الحلوى ويجرون

تاركين ضحكاتهم ترن وسط الأجولة ،

للنباح ولعجلات العربات على حجارة هشة

فتنقسم لحجارة أصغر .

.....

ألم أكن أعلم قبل الآن

صعوبة تحوُّلى لرفٍ خشبيٍّ فى دكان ،

أحمل ما يوضع فوقى ، وفى اللحظة الحرجة أنكسر

ببساطة رفٍّ مازال صامداً يتحمل ؟

ألم أكن أعلم صوبة تحوُّلى إلى نملة

تدّخر فى الصيف وتختبئ فى الشتاء ،

لا تحاول الاختباء فى الصيف أو الادخار فى الشتاء ؟

ألم أكن أعلم صوبة تحوّل إلى كلام

يدور بين صاحبين وهما يشربان الينسون ،

كلام له صورة شفافة ،

لا يترتب عليها أى ألم ؟

.....

لا ألحق بالصباح فى الحديقة

روحى ارتبكت أمام الباب المغلق للدكان ،

فبعثرت حبات الذرة فى طريقها للإفلات

ذهب الصوت المكتوم لسقطتى

ذهب ضجيج العلب التى هوت من الأرفف

وأحاطت بى من كل ناحية

ابتلعه الليل والنباح والمواء .

ما تعنيه كلمة ظهيرة

منذ عشرين سنة

لم يتوقف الحَبَّاز عن ترطيب ساحة المخبز

نظرته للقطرات فى التقائها بالغبار

تذهب إلى الخشوع .

عاملُ المقهى ، صاحب المواويل التراجيدية

يغنى للمراييل الزرقاء وللنهود

ويتفادى المارة فى اللحظة الأخيرة

قدماه الحافيتان دائما ، داخل بحيرة .

تاجر القماش ، يعرف كيف يكسو ساحته بلون واحد ،

لون القطيفة السوداء

لا بقعة عطشى أو موحلة .

العيال داخل الرذاذ ، يمرون تحت قوسه

أو يقبضون عليه بأصابع غير مدربة

فيعودون بهيئات جديدة

في طريقهم ، يصادفون عمالاً حفاة وأصحاب دكاكين

وساكين في طوابق سفلى ، مندفعين باتجاه الغبار

يثور ، فيندفعون بالماء لتهدئته

الساحة الترابية ، ليست نفسها بعد الماء

ساحة المقهى أو ساحة محل القماش

أو ساحة المخبز

لون غامق وشظايا معدنية ، استردت لمعانها

كيف وصلت إلى هنا واندغمت في التربة؟!؟

عابرون أطلقوا لحاهم من الغمّ

والرذاذُ له وقع المفاجأة

بنتُ فحمةٌ تمرُّ خفيفاً على أرض مبلولة

فيتخيل مراقبو المقهى ثوباً منحسراً

وساقين بلون الحليب تصنعان زاوية قائمة على الأرض

المعجزات ، هل تنام في الماء ؟

الأمهات حبسن أطفالهم بعيدا عن شمس قاسية

فظلوا يحدقون إلى الرذاذ من النوافذ ويتنادون :

من أيه زاوية يندمج الماء بألوان الطيف ؟

من أية جهة تخرج نسمة الظهيرة ؟

بهجة الألفاظ

ألفاظُ حمراء وخضراء وزرقاء

دقيقة وهشة ، ولها أشكال البالونات

التي لا نراها إلا في العيد ،

يلمحها الشاب وهي تنطلق من أفواه الأمهات

الريفيات في المدينة

يتبعها ، فتتقاذز الكلمات بين يديه وتصعد

زرقاء وحمراء إلى أعلى .

حين ينجح في الإمساك بلفظة

تنكسر في فمه ، بين أسنانه ولسانه

الأمهاتُ ، ساكنات أمام بيوتهن

في ملابس سوداء دائماً

الشمس هي التي تتحرك

جرارهن معلقة على الحوائط ، مغسولة بالرمل وملاآنة

لا يطربن إذا تكلمنَ

إذا ضحكنَ ونادينَ

إذا بكينَ وتشاجرنَ وغضبِنَ

لا يطربن من موسيقى يعزفنها كل لحظة

السعادة : هي العطشان الذي يستأذنه في شربة

الشاب ، يترقب لحظة لا ينشغلن فيها بلوم بناتهن ،

ثم يسقط حافظة أوراقه أو يتعثر عامداً

لا لشيء إلا لتشهق أمٌ وتبسم من أجله ،

للتفافز الألفاظ الملوونة بأفءاهه

ثم ءحمل الأم ءرءها المعطرة وءسقهه .

ملوك الليل

فيما نكون نائمين ، يأتي من يمتلكون الليل ،

الليل الأصلي الخالي من شمعة

إذا عاد أحدنا متأخراً يسلبونه ساعته

لا يقبلون توصلات .

يضاجعون وقوفا ، صديقاتهم أو غريبات سرعان ما يرضخن

يتساوى الأمر

في مداخل البيوت أو تحت أعمدة الكهرباء

لكنهم يحتفظون بالجرائد في أيديهم

تحسبا لافتراشها

فيما يضاجعون،

يتوهمون أن آخرين يتلصصون عليهم فيتوعدونهم

الشتائم بعد اصطدامها بالنوافذ

تتسلل إلينا مغسولةً محملةً بالإيقاع،

عيوننا مفتوحة في العتمة

ونبتسم كلما تصاعد السباب في الليل

امرأةٌ تهزل

من نافذتي ، أرقب دمها الساخن ودموعها

كيف كانت أعضاؤها متوهجةً منذ لحظات

تنير عتمة الزقاق .

الجميلةُ ضربها عشيقُها القديم

وطعنَ عشيقُها الجديد حين دافع عن ملمس أصابعه

على فخذيها ،

تهرول تحت نافذتى ، قاصدة رجاها .

لم يتمكن من نسيانها فى أية لحظة ،

عشيقها القديم

يأسه ومرارته

مطواته وأصدقائه المقربون

ذكرياته عن ملمس أعضاء لا تتكرر

فى هرولتها

تدخر الصراخ حتى تصل إليهم ،

ملوك ليل آخر

ثوار لا ييخلون على السكاكين

ويقودون العالم بالمنحارج القوية للحروف

الكلام نوع من استعراض القوة

الكلام ينفي الآلام والانكسارات

يتكلمون فيعرفون ماذا تساوى الحياة

لا أكثر من بولة ،

طعنة يلقونها وينطلقون فاتحين قمصاتهم

هاهى صدورنا أيها المطر

يا ظلام ،

لا نُخفِ ملامحنا .

من أهينت أثنائه ، يعدو بين الحارات

فتسقط قطرات دمه على التراب

يعوى متمنياً أن تظهر فريسة ، أية فريسة

ورقة شجرة ،

صوتٍ أو خيال

يضرب أعمدة الكهرباء بسكينه

فينبعث رنينٌ يذهب إلى البهجة لا إلى الشجن

أسرعوا أيها الملوك

هنا موقع المعركة

هنا ستتحرر الدماء كومضات فسفورية

العاشقُ القديم وأصدقاؤه

يختبئون في زقاقٍ قريب

لا يملكون سوى دمائهم ، يذرونها

في الفرح وفي الغضب

في المحبة وفي الكراهية

صدورهم عاريةٌ والسكاكين تمتُّ لعصور قديمة

المقبض هو كل اللحظة

والنصل هو الساحر الذى يمتص الضوء

وتتعلق العيون بحركته

يا أيدي ... تشبثى بالمقابض

الأيدي المنتصرة والأيدي المهزومة

الأيدي التي يغطي الدم أصابعها ، ثم يقطر على التراب

الأيدي الخبيثة بالألم الذي تسببه

بطول الجرح وعمقه

بعدد القطرات التي ستسيل .

على الكلاب أن تتوقف عن النباح والتسكع

القطط على سطوح المنازل وفي الفجوات

على قطتين أن توقفا تسافدهما إلى حين

وترقبا الضجيج .

أينها الجميلة التي أوقعت بين الملوك ؟
أفي غرفة عشيقها ، تفر الأنفاس التي تطبهه ،
تلحق جرحه وتغمره بريقها ؟

بين اليقظة والغيوبة ، يناديها
ويتوعد الآخر بجرح من العنق حتى السرّة ،
يلقى بأحشائه إلى الخارج
يتوعد بين الغيوبة واليقظة .

خلف النوافذ متفرجون أطفأوا الأنوار
رؤوس في زوايا حادة
تحصّن نفسها من الاكتشاف
وترى المعركة التي تحدث أسفل

سباقا بين دماء حمقاء .

غامت الرؤية في عيني أحد الملوك

انحرف إلى شارع آمنٍ مطوحا بسكينه

الأعداء الذين في الذاكرة

الذين تكدسوا على مدار سنوات

حضرُوا أمام عينيه ، وها هم يجرون في كل اتجاه

من الذى ستخونه قدماه ؟

من ستبتلعه ذاكرة الملك ؟

سقط صغير ، كان يخزّن المعركة في رأسه

عندما انتبه

وجد نفسه آخر الهاربين

الملك يضرب في جميع الاتجاهات

وخصومه يتساقطون من حوله

لم تعثرت أيها الصغير

لم تلجأ لرفاقٍ أو بابٍ مفتوحٍ؟

الانهياراتُ تحسم المعركة

يترك أحدهم ثغرةً ينفذ النصل منها لجسمه

فيكسب التعاطف الذي يحتاجه

في الميزان : التعاطفُ وخيلاءُ القوة

من اختار أن يُحمل على الأذرع

يتأوه ويكي ، كما يحدث بأحلامه ،

اختار أن يرى تأثير دمه على آخرين

يحرصون على حفظ دمائهم بعيداً

في أقصى أجسادهم

الشكوى والهذيان في متناول يده

مثل الأطعمة الجيدة

هل انتهت المعركة

لم ينفذ الهواء المحمل بالصياح والشتائم

لم تخل الساحة من الظلال التي تعدو

ولم تعدم النوافذ مراقبين .

تمرينات لأمرء لم يتوجوا ملوكا بعد

يدرسون الأرض ويكتسبون الخبرة

ينقلون الوقائع ، فيما يستعيدون الضربات

الحاسمة

كيف كانوا قريبين من أحد الملوك وهو يطعن

كيف طفر الدم فجأة

وأين أصابهم الرذاذ .

الكلاب تتحرك بحذر

تفصل الروائح المختلطة والآثار

والقطط بدأت جولة جديدة من التسافد .

تُرَابٌ

الصَّبِيُّ وَغَدَاؤُهُ بَيْنَ يَدَيْهِ

رَغِيفٌ مِنَ اللَّحْمِ الرَّخِيفِ

سَخُونَتُهُ عَلَى كَفِّهِ ، وَرَائِحَتُهُ تَقَابِلُ حَوَاسِهِ

رَائِحَةُ اللَّحْمِ ،

لَمْ تَمُهَلْهُ حَتَّى يَعودَ إِلَى مَكَانِ عَمَلِهِ وَيَأْكُلُ جَالِسًا

الرَّغِيفَ مَفْتُوحَ وَفَمِ الصَّبِيِّ يَتَذوقُ

فِي مَا تَتَقَافَزُ قَدَمَاهُ وَسَطَ العَرَبَاتِ

أَوْ تَتَجَنَّبُ صَبِيًّا يَمْرُقُ عَلَى دَرَاجَتِهِ

الرغيف دافئٌ معطرٌ والبنت بأعضاء نامية

صفيّرٌ باتجاه البنت

ورغيفٌ على التراب

البنتُ تحتفى في حارة

والصفيّرُ ينقطع

العربات تعبر وصيبة يمرقون على دراجاتهم .

الترابُ ليس بالسوء الذى تصوره الأمهات

هو كالهواء نسبح داخله فلا يؤذينا

إذا كانت الأحصنة والكلاب تدوسه بقوائمها

فهى أيضا تتنفس الهواء معنا

انفخ الترابَ عن رغيفك أيها الصبي

وابتلعه في قضمات سريعة ، قبل وصولك الى ورشتك

وإذا صادفتَ بنتاً أخرى ،

انشغل بها عما بيدك

مجد نهديتها بصفيّرٍ أو أغنية .